التقرير اليومي

٢٠٠٧/٨/٣١

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

الغطاء المكثف (٢\١)

بقلم بروس بيروكوويتز (حول التحديات التي تواجه جماعة الإستخبارات الأميركية في الحرب على الإرهاب)؛ هوفر دايجست؛ ٢٠٠٤ رقم: (٤)

في الحروب الجديدة ضد المنظمات الإرهابية والدول المارقة، غالباً ما تحتاج الولايات المتّحدة إلى "غطاء" فعال– القدرة على إرسال القوات العسكرية وضباط المخابرات الى الخارج من دون معرفة خصومنا من يكون هؤلاء. ولسوء الحظ، نادراً ما كان هذا الأمر قوة تفصيلية وإستثنائية بالنسبة للولايات المتّحدة، كما أنّ المقاربات التي كنا قد إستخدمناها في الماضي بالكاد تكون مناسبة اليوم.

وحتى نبدأ بتطوير غطاء أفضل، فإننا سنكون غير مستعدين لمواجهة التهديدات التي تنتظرنا. فالقوات العسكرية الأميركية بحاجة الى بنية تحتية سرية لدعم عمليات الضرب، الغزوات وإنقاذ الرهائن . فالمؤسسات الإستخبارية بحاجة الى غطاء فعال لإختراق الخلايا الإرهابية والمنظمات الإجرامية الدوليةو– وهو الأهم حتى– الحصول على وسيلة للدخول الى وسائل الإتصالات الأجنبية.

المقاربة التقليدية

كانت المؤسسات العسكرية والإستخبارية تعتمد، بشكل رئيس، على الغطاء "الرسمي"، وهو ما يعني بأنّ معظم العاملين في الدائرة السريين كانوا معروفين، صراحةً، بأنهم موظفين حكوميين أميركيين. أما الأمر الوحيد الذي كان سراً، فهو إرتباطهم بالقوات المسلحة والإستخبارات.

إنّ هذه الممارسة بالإعتماد على الغطاء الرسمي، بشكل رئيس، لا جذور تاريخية قوية داخل الدائرة الإستخبارية. فعلى سبيل المثال، كان آلان دالاس، الأب الروحي لوكالة الـ CIA السرية، يدير مركزاً أميركياً في مدينة بيرن لصالح "مكتب الخدمات الإستراتيجية" تحت غطاء رسمي خلال الحرب العالمية الثانية.

كان الغطاء الرسمي فعالاً خلال فترة كبيرة من القرن العشرين، لأنّ معظم الأهداف الإستخبارية كانت في أماكن حيث بإمكانك صنع حالة تكون مقبولة ظاهرياً تتعلق بوجود مسؤولين أميركيين على الأرض. ففي حالة آلان دالاس، على سبيل المثال، كانت سويسرا دولة محايدة وتمتد على مفترق طرق هام ديبلوماسياً ومالياً بالنسبة لأوروبا. ويظهر السجل بأنّ دالاس لم يكن عليه أن يسعى خلف الجنرالات الألمان، والضباط الإيطاليين أو رجال الأعمال النمساويين الذين كانوا يوفرون له المعلومات، إذ كانوا هم من جاء إليه. فمعظم عملاء دالاس كانوا أشخاصاً يأتون من دون موعد– أشخاص كانوا يعلمون (أو إشتبهوا) مع من كان يعمل والاس فعلاً وتطوعوا لتقديم خدماتهم.

كما أنّ الغطاء الرسمي كان ناجحاً بالنسبة للإستخبارات الأميركية خلال الحرب الباردة أيضاً. إذ كانت أهدافها الرئيسية ضباط الكتلة السوفياتية أو مسؤولي بلدان العالم الثالث الذين كانوا لاعبين في الحرب الباردة. فالمجندون الراغبون كانوا ديبلوماسيين، ضباط عسكريين أو أعضاء وكالات الإستخبارات الخارجية. وكان المسؤولون من هذا النوع يميلون للعمل في نفس المدن التي يعيشون فيها والتحرك في نفس الدوائر الإجتماعية، كنظرائهم الأميركيين.

وإستخدم الجيش أيضاً الغطاء الرسمي لجمع المعلومات الإستخبارية قبل المضي الى المعركة، كما إستخدمه لتحضير الدعم اللوجستي للقوات الأميركية قبل وصولها. فأحياناً يستخدم الجيش الـ CIA، وأحياناً يستخدم دائرة موظفيه الخاصة به. وفي الحالتين، يعتبر الغطاء الرسمي اليوم أقل فاعلية بكثير من الماضي. فالأهداف الإستخبارية الرئيسة لم تعد تتعلق، على الأرجح، بالضباط العسكريين الأجانب، ضباط الإستخبارات أو الديبلوماسيين،، وإنما أصبحت تتعلق، وهو الأرجح، بالقادة الدينيون والطلاب في المساجد والمعابد الأجنبية، شخصيات الجريمة المنظمة، أو المتطرفون الإيديولوجيون. فالأهداف الأكثر قيمة قد تكون محتالي الحواسيب الذين يديرون مواقع خدمات أجنبية على الإنترنت.

لماذا يريد مسؤول من الحكومة الأميركية الإجتماع مع هؤلاء الناس؟ لقد بدأت ترى المشكلة. فإذا كنت تريد تجنيد عملاء أجانب، فإنك بحاجة لأن تكون قادراً على الإحتكاك مع المجتمع.

وبشكل مشابه، فإن من المرجح أن تكون العمليات العسكرية الأميركية السرية مطلوبة في بلدان ليس لدى الولايات المتحدة فيها تمثيل رسمي كبير، أو ليس لديها فيها تمثيل مطلقاً – أماكن مثل العراق أو ليبيا على سبيل المثال.فحتى ولو كان هناك وجود أميركي رسمي، فإنّ مسألة توفير الدعم السري لعملية عسكرية ما يمكن أن تخلق تعقيدات كبرى.

والأسوأ من ذلك هو أنه حتى ولو كان بإستطاعة غطاء رسمي إستغفال أي كان في الحرب الباردة– كان عدد من الخبراء، حتى آنذاك، يشككون بالموضوع– فإن من غير المرجح، وبشكل جازم، أن يتمكن من إستغفال أي كان اليوم. فهناك معلومات كثيرة للغاية متوفرة على الإنترنت وفي مراكز معلوماتية عامة أخرى، بحيث أن من السهل إلقاء الضوء على شخصية ما من الشخصيات المسؤولة العاملة تحت غطاء رسمي. وكنت قد أمضيت قبل بضعة أشهر، فترة بعد الظهر مع مارغوت ويليامز، مديرة حاسوب مساعدة في إعداد التقارير المراسلات لصحيفة الواشنطن بوست. وتعتبر ويليامز شخصاً مميزاً بشكل غير عادي في الحاسوب والإنترنت، وقد أردت أن أرى مباشرة من المصدر الأصلي كيف يكون الغطاء الرسمي ضئيلاً ورديئاً.

وللحصول على البرهان، أعطيت ويليامز إسماً كي تبحث عنه. إدعوه رون؛ كنت وإياه على عشاء جمعنا معاً قبل بضعة ليال، وسألتها ماذا يمكنها أن تخبرني عنه. وقامت ويليامز بالطباعة وتحريك الفأرة، وبغضون ٣٠ ثانية، كانت قادرة على إطلاعي بأنه كان ضابطاً في الـ CIA. وبالواقع، إنّ رون– الذي كان قد أمضى قسماً لا بأس به في مهنته يعمل بشكل سري– هو الآن من كبار مسؤولي الوكالة المسؤولين عن العمليات السرية. إنه مكشوف الآن، لذا فنحن لم نكن نكشف أية أسرار، ولكنك سترى المشكلة في غضون دقيقة واحدة.

فقد إستلزم ويليامز ٥ دقائق فقط لتظهر لي كيف أن بإمكان أي شخص أن يعلم أين عاش رون خلال الـ ١٥ عاماً الأخيرة؛ أسماء زوجته وأطفاله وإسم زوجته السابقة؛ كل الإجراءات القضائية التي مر بها؛ كل الأملاك التي تخصه. كما وضعت ويليامز أيضاً لائحة بكل

الأماكن التي سبق لرون وتوظف فيها، أين كانت ثانويته وكليّته، مكان ولادته، عيد ميلاده ورقمه ضمانه الإجتماعي (وهاتان المادتان الأخيرتان، هما، وبالصدفة، ما يستخدم عند تمرير التوضيحات الأمنية).

وما إن خرجت ويليامز بتصورها بأنّ رون كان ضابطاً في الـ CIA، حتى قامت بعدها بسحب كل الملفات الموجودة في الأرشيفات الخاصة بالواشنطن بوست، والتي كان فيها ذكر عنه. وخلال هذا الوقت، كان لدينا عشرات السجلات والوثائق عن مسؤول كان علاقته بالـ CIA، في وقت ما، علاقة سرية رسمياً. وهنا تقع المشكلة. ففي الـ CIA، وكمعظم الوكالات الحكومية التي يعمل الناس فيها تحت غطاء، يرقى المسؤولون في النهاية الى مستوى أعلى في المؤسسة بحيث لا يعودوا يخفون روابطهم مع الحكومة الأميركية. وربما لم يكن هذا الأمر يشكل مشكلة كبيرة في الماضي، لكن اليوم بإمكان الإنترنت أن يسحب لك عقوداً من حياة شخص ما في ثوانٍ– جامعاً لك عناصر وخصائص أي عميل قد يكون مرتبطاً معك قبل ١٠ أو ١٥ سنة مضت. لذا، فقد أصبح من الصعب أكثر تجنيد عملاء إذا ما علم هؤلاء بأنه قد يُكشف عنهم بعد عقد من الزمن. أما في المستقبل، فإنّ المشكلة ستصبح أسوأ، حيث أنّ البيولوجيا الإحصائية (البيو– ميتريكس) تجعل من الممكن فهرسة سمات عظم الوجه الأساسية للفرد، نماذج قزحية العين، أو الـ DNA. وعندما يحدث ذلك، لن يكون من الصعب فقط فبركة تاريخ حياة ما، وإنما سيكون من الصعب حتى إضافة أي نوع من التمويه على هذا التاريخ.

وبعد سحب العشرات من نماذج المعلومات معاً، أطلقت ويليامز وسيلة ربط تحليلية، وهي رزمة "سوفت وير" التي بإمكانها أخذ مجموعة ضخمة من الوثائق، قوائم الهواتف، جداول المواعيد والبرامج وعناوين السجلات، إنتقاء أسماء من كل واحد منها، وإظهار الروابط بين كل إسم من الأسماء. لذلك، فإنه عندما قامت ويليامز بالنقر على "الآيكون" ملأ البرنامج شاشة الحاسوب بشبكة إجتماعية كاملة عن الناس والأماكن– كلها مرتبطة بـ "رون" في وسط الشاشة.

إنّ رون مسؤول من المستوى المرموق والمعروف جداً، لذا ربما لم تكن التجربة عادلة أونزيهة. ولذلك، فإننا سرعان ما إنتقلنا الى مسؤول آخر في الـ CIA من "مجلس إدارة العمليات"– إدعوه جوس– بصفته حالة أكثر تمثيلية. جوس لم يعمل بشكل سري منذ سنوات، لكن ويليامز أظهرت لي الى أي حد يمكنها الرجوع الى الوراء لتحدد بعض الأماكن التي عمل فيها، حيث كانت مراكز المعلومات الرسمية قد وضعته على قائمتها بصفته مسؤول أميركي معين في الخارج. كما أظهرت لي كيف بإمكانك تأكيد صحة شيء بمقارنته مع معلومات متطابقة أو متماثلة أخرى للعثور على أشخاص قد يكون إلتقى بهم– وبمعنى آخر، أشخاص قد يكون مشتبهاً بهم من قِبَل حكوماتهم على أنهم جواسيس للولايات المتّحدة.

كما أظهرت لي ويليامز أيضاً، عن طريق مقارنة سجلات التوثيق المعروفة علناً لرون وجوس، كيف أن بإمكاننا إجراء إسناد ترافقي (الإحالة من جزء من فهرس أو قائمة أو ملف الى جزء آخر محتوي على معلومات ذات علاقة) لعدد من المسؤولين الذين عملوا سابقاً سراً، والعمل على جمع سيرة ذاتية عن ميزات وإنجازات ضباط الـ CIA الحاليين الذي يعملون بشكل سري. فكل وكالة إستخبارات في العالم ذات قيمة تعلم كل شيء عن هذه الوسائل والخدع. أما النقطة الهامة هنا، فهي أنّ مسألة خلق غطاء فعال قد بدأ يصبح مشكلة ضخمة بالنسبة للولايات المتّحدة اليوم، وهذا أمر علينا تناوله بجدية.

بإختصار، نحن لم نعد نستغفل أحد– ما عدا أنفسنا ربما– بالإعتقاد بأنّ أعدائنا لا يعلمون من هم ضباطنا السريون. وبالتأكيد، فإن مسألة إستخدام الضباط تحت غطاء رسمي لا يزال لها مجالاتها المستخدمة بها– ضباط الإرتباط السريون مع وكالات الإستخبارات الأجنبية، على سبيل المثال. إلا أنّ هذه المقاربة التقليدية بدأت تصطدم بعائق محدوديتها في الحرب ضد التهديد الجديد. ولأنها تفتقر الى غطاء فعال حقاً، فإنّ الإستخبارات الأميركية تفتقر الى القدرة على مهاجمة عدد من الأهداف التي نحن بحاجة الى إختراقها.

إذا كان المسؤولون الحكوميون وخبراء الخارج قلقون من هذه المشاكل، فلماذا إذن كانت دوائر الإستخبارات والقوات المسلحة بطيئة لهذه الدرجة إزاء التغيير؟ بالواقع، إنّ لجماعة الإستخبارات "بالفعل" أشخاص يعملون تحت غطاء غير رسمي (NOC). أما المشكلة، فهي أنّ النموذج التقليدي لحالة المسؤول العامل تحت غطاء رسمي مغروس عميقاً في البنية التنظيمية للـ CIA، نظام دائرة الموظفين، والمقايضة. فالمؤسسة طورت حوافز وإجراءات تجعل من الصعب عليها تبني نموذج عمليات مختلف.

على إفتراض أنك مواطن أميركي يصدف أنه ذي بشرة داكنة، طلق اللسان بالفارسية ومتشوق لخدمة بلدك، عندها يعطيك النظام الحالي خيارَيْن.

إختر الخيار "أ"– العمل كـ NOC(تحت غطاء غير رسمي)– وسيكون لديك وظيفتان كما يُقال، أي كمدير شركة لها أعمالها في الخارج وتكسب، إسمياً، مبلغ ١٢٥٠٠٠ دولار سنوياً، وكموظف حكومي أميركي يتجسس مقابل ٥٥٠٠٠ دولار سنوياً. وفيما عدا أنك لن تحصل سوى على راتب أقل فقط، فسيكون عليك أن تمضي معظم وقتك في الخارج، ولن تكون قادراً على الإجتماع بمعظم نظرائك الحقيقيين في الـ CIA.

أما في الخيار "ب"– العمل تحت غطاء رسمي– فإنّ عليك أن تعيش في ماكلين/ فيرجينيا وأن تقود مدة ١٥ دقيقة للوصول الى عملك. ويمكنك رؤية رفاقك في الكافيتيريا خلال وقت الغداء وتستطيع إرسال أطفالك الى مدارس "فيرفاكس كاونتي". بإمكانك الإرتباط كما تريد مع مجموعة من الناس لهم أهداف وإهتمامات متشابهة لتحقيق مصالح متبادلة، كما يمكنك الحصول على ترقيات ثابتة، وأن تذهب كل سنتين الى الخارج وتتظاهر بأنك مسؤول أميركي.

مع هذا النوع من إختيار طرق المهنة، فإن من العجيب، أساساً، أن نتمكن من الحصول على أي شخص يريد العمل تحت غطاء مكثف، لكن هذا تماماً ما نحن بحاجة إليه اليوم. وتتوازى المشكلة مع مبدأ موجود في نظرية إقتصادية– قانون غريشام، والتي سميت كذلك بعدما أشاع السير توماس غريشام، وهو مصرفي إسكتلندي، الفكرة. أما صيغتها البسيطة، فتقول أن "المال السيء يطرد المال الجيد". فعلى سبيل المثال، إذا كانت بعض عملات الدولار مصنوعة من الفضة والأخرى من التنك، فسرعان ما ستصبح عملات التنك فقط ضمن التداول. الشيء نفسه يحدث في المؤسسات التي تحاول تشغيل ضباط تحت غطاء كثيف وضباط تحت غطاء رسمي، فسرعان ما يصبح كل الضباط، تقريباً، تحت الغطاء الرسمي. وكالتنك، يعتبر الغطاء الرسمي أمراً أسهل، لذا فإنه عندما تكافئ المؤسسة كل ضباطها بشكل مساوٍ، فسرعان ما لن يكون هناك من يريد العمل تحت غطاء سري مكثف.

إنّ العمل الإستخباري السري حقاً، وكذلك العمليات العسكرية، يجب أن تكون مبنية داخل مؤسسات تكون وظائفها الحقيقية سرية بالكامل. فالعمليات السرية حقاً يجب أن تكون مفصولة ومعزولة تماماً عن المؤسسات العلنية– حتى المؤسسات التي لديها أشخاص يعملون تحت غطاء ضعيف أو رسمي. فهذه العمليات بحاجة الى تطوير مهني خاص بها والى هيكلية إدارية. بالواقع، يمكن للغطاء الضعيف اليوم أن يكون خطراً بالتأكيد بالنسبة لأي شخص يحاول العمل تحت غطاء مكثف. ولأنّ من السهل للغاية تحديد ضباط الإستخبارات العاملين تحت غطاء رسمي، فإنهم "آخر" من قد يريد الإلتقاء بهم أي شخص جدي بخصوص إخفاء روابطه مع الحكومة الأميركية. إذ أن لقاءً كهذا سيستفز التساؤل لِمَ يلتقِ شخص يفترض به أن يكون جهة خاصة طبيعية، متواضعة وبسيطة مع شخص معروف بأنه يعمل سراً لصالح الحكومة الأميركية.

ويلاحظ أحد ضباط الـــ CIA (من الذين يفهمون مشاكل الغطاء الرسمي)، "أنّ الغطاء يشبه الصابون، ما إن تغسله، فإنه لا يمكنك وضعه مرة أخرى". أما الغطاء الفعال فسيصبح مسألة أصعب في حقبة "البيو ماتريكس". إذ ما إن تقوم بتعريف عميل سري، حتى يصبح هذا الشخص متسماً بذلك مدى الحياة. والأسوأ من ذلك، هو أنّ أي شخص يتصل به سوف يصبح مشتبهاً به.

إن الغطاء يجب أن يكون طريقة حياة.

Research Services Group
www.ipileb.com